

الرؤى الرابعة.. على غير المعهود

فريد الخمال



على غير المعهود

طريقنا ماله حدود والورد قد افنا.. فجأة.. لعينا صخور
بتهد في آفاننا.. أثارها كانت زور قتلنا بعاشه فاضله
فنا.. غير صورة مرسوم فيها أخلافنا..

وليد صالح

﴿ على غير المعهود ﴾

كان الليل مُقمرًا صامتًا، مُعلنًا بداية فصل الشتاء، بخطوات مُتسارعة، دخل المقهى على حين غرة من صاحبها، توجه للزاوية اليسرى كعادته، جلس مُسندًا الكرسي إلى الحائط، كان يرغب كثيرًا في أن يجلس برفقة رواية يعيش معها، ويغوص في أحداثها ناسيًا الحياة وهمومها ومتاعبها، إلا أنه بعد مشهد اليوم، جال خاطره واستيقظت ذاكرته على صورة مُفزعَة، أبعدُ كل هذه السنين يأتي الماضي يجر حقائبه بهذه الطريقة؟

جاء النادل على غير المعهود، ليسألني عما سأطلبه، أحسست بأنه أعاد الجملة كثيرًا حتى تمكنت من سماعه، واكتفيت بجملة صغيرة:
-قهوة سوداء كالعادة- توحى بعدم رغبتى في الكلام.

تأمل النادل فيه مليًا واستغرب حالته، لطالما رآه مُتيقظًا يُقلب صفحات كتاب من الكتب، اليوم يدخل بمزاج مختلف، وخاطر جائل، لم يتأخر النادل حتى عاد وفي يده فنجان القهوة، ليُنزله على الطاولة، أخذ كرسياً وجلس أمامه مشدوهاً، المقهى فارغ تمامًا من الزبائن، سوى العم حسن الرجل الأصلع ذو اللحية الكثيفة، صاحب المقهى، وهو يقوم بحساب أرباح ومصاريف اليوم.

ظل النادل مُترددًا في الحديث معه، كان دائماً ما يُقبل عليه بوجهه البشوش، المُفعم بالأمل، لكن اليوم وجهه تعلوه الكآبة من دون مقدمات، والحسرة تلف كلامه:

هل تعرف لقد كان خالد مُجتهدًا مُواظبًا خلوقًا، كان كل همه

العلم والتحصيل الدراسي، درسنا معًا وتشاركنا كل لحظتنا، بحلوهها ومرها، بجدها وهزلها، بشتاءها وصيفها، هكذا كنا، إلى أن تخرجنا من الجامعة، تغيرت الأحوال، وقلَّ التواصل، اشتغلنا بعد مدة طويلة من بحثنا عن عمل يليق بتحصيلنا ومستوانا، إلى أن ولجنا شركة، أنا عامل عادي، وخالد حارس ليلي.

كان توقيته مُغايِرًا، يقضي نصف اليوم في العمل، بينما أقضي ثمانى ساعات، ونحن من كنا بطموحنا نكسر كل الصعاب، ونُمهد كل جبل ليكون طريقًا مفروشًا، لكن عامًا ونصفًا كانا كافيين في أن يقلبا موازين حياتنا، حينما اصطدمنا بواقع قاسٍ لا يعترف بأحلامنا.

مرّت ثمانية أشهر، تغيّر كل شيء، بعدما كان خالد مُفعمًا بالأمل، مُبتسمًا رغم الآلام، انبطح الحزن على جبينه، ترهل الأمل، وبدأت تجاعيد اليأس تنمو وتطفو، ابتسامة الأمل بدأت تتلاشى، وظهر آثار الإرهاق المر، حينما أمره رئيسه في العمل أن يضيف ثلاث ساعات على التوقيت اليومي، واستجاب لطلبه هربًا من شبح البطالة، الذي كان ينتظره، لقد كان يعمل هربًا من أصابع المُحيطين به وهي تشير إليه وتقول:

- هذا هو الذي أفنى عمره في الدراسة، وبعد ذلك أصبح عالمة في منزل أسرته، كان يسمع كل يوم هذه الجملة تنطق بها نظراتهم، لتُغير كل القناعات بعد عام ونصف، وقبول أي عمل فيها كان، إلى أن جاء الشهر التاسع ليتمخض عن صراع كبير ينتج عنه طرده من العمل، إن الإنسان قد يتجاوز كثيرًا، وقد يتغاضى عن كثير، هروبًا من ضوضاء المُحيطين به والنظرات القاتلة، لكن

قد يأتي يوم وتكون قطرة الماء سبباً في فيضان مجهولة عواقبه.
 ذهبت في الصباح، فسمعت بالخبر وقد انتشر كالنار في
 الهشيم، صديقك خالد قد أفرغ جام غضبه وتوتره في رئيسه، بعدما
 طلب منه أن يُنظف المراحيض، بالإضافة إلى الحراسة، فبحثت عنه
 في منزله الذي كان يستأجره بعيداً عن أسرته ولم أجده، بل وقد
 اتصلت به مراراً ولم يرد، إلى أن شاع في الشركة خبر موته بعد
 محاولته الهجرة في قارب مطاطي.

مرّت أعوام وأعوام، حتى اقتنعت بأن خالدًا قد مات فعلاً في
 تلك الليلة الشديدة المطر، حتى جاء اليوم، ويلفت انتباهي
 شخص يأكل بشراهة، تظهر عليه علامات الاضطراب النفسي،
 أشعث الشعر، مُلبّد اللحية، كث الشارب، مرقع الثياب، تأملته
 ملياً فإذا به يوقظ ذاكرتي وينتشل صورة صديقي، أبعد كل هذه
 السنين، ألتقي بك مُجدداً وقد دارت بك الدنيا دورتها، اقتربت منه
 وحاولت أن أمد يدي لمُصافحته، بل لعناقه، ورائحته المنتنة قد
 ملأت الأجواء، لم يعرني اهتماماً وظل يأكل بشره من حاويات
 القمامة غير مكثرت بمن حوله.

استغرقت في الحديث والنادل واجم أمامي، وقد تصبب جسده
 عرقاً، ولم يستطع تحضير جملة ليرد بها عما سمعه، إلى أن نادى عليه العم
 حسن لإقبال المقهى، بقي السائل الأسود الداكن مكانه، حتى برد،
 ولملمت نفسي مُتوجهاً إلى بيتي وعياني لا تفارقهما صورة خالد.

نعمة بعمد الله

